بسم الله الرحمن الرحيم

## الدرس الخامس

## ١٤٤٠/٠٤/٠٦

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب:٦] وهذا دليلٌ علىٰ أنَّ من لم يكن الرسولُ أولىٰ بِهِ من نفسهِ فليسَ من المؤمنين، وهذه الأولويةُ تتضمن أمورا:

منها أن يكونَ أحبَّ إلىٰ العبد من نفسه؛ لأن الأولويةَ أصلُها الحب، ونفسُ العبدِ أحبُّ إليه من غيره، ومع هذا فيجبُ أن يكونَ الرسولُ أولىٰ به منها، وأحبَّ إليه منها، فبذلك يحصلُ له اسمُ الإيمان.

ويَلزَمُ من هذه الأولويةِ والمحبةِ كمالُ الانقياد والطاعةِ والرضىٰ والتسليمِ، وسائرُ لوازمِ المحبّة من الرضىٰ بحكمه، والتسليمِ لأمره، وإيثارِه علىٰ كل من سواه.

---

الحمد لله رب العالمين، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحدهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابهِ أجمعين.

أمّا بعد.. هذا الدليل الثاني من الأدلة، أدلة القرآن الكريم التي ساقها ابنُ القيم رحمةُ الله عليه في بيان ما يتعلق بهذا المطلب العظيم، والذي هو: الهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاةُ والسلام بالاتباع والاهتداء بِهَدْيِه عليه الصلاة والسلام، وأن يُحَكِّمَهُ في كلِّ الأمور، وأن يُعوِّل علىٰ هَديِه وسُنَّته ﷺ في جميعِ الأعمال.

فأوردَ هذه الآية الكريمة قول الله ﷻ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، ففيها أنه عليهِ الصلاة والسلام أولىٰ بكل مؤمنٍ ومؤمنةٍ من نفسِه، وهذا كما سيأتي في بيانِ ابن القيم ؒ يتضمَّن معاني عظيمة تستفاد من قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾.

من هذه المعاني المستفادة من هذه الآية: أنَّ الواجب أن تكون محبةُ النبيّ ﷺ مقدمةً علىٰ محبّةِ النفس والوالد والولد والناسِ أجمعين، ولا يتمُّ الإيمان إلَّا بذلك، كما جاءتِ السنة مُصرِّحة بهذا، قال عليه الصلاة والسّلام: «**والذي نفسي بيده لا يؤمنُ أحدُكم حتىٰ أكونَ أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين**» [صحيح البخاري ومسلم]، في حديث عمر في «صحيح البخاري»: قال: قلت: يا رسول الله؛ [والله] لأنت أحبُّ إليّ من كل شيء إلا من نفسي! فقال عليه الصلاةُ والسلام: «**لا والذي نفسي بيده حتىٰ أكون أحبّ إليك من نفسك**» [واللفظ الذي قاله: «لا يؤمِنُ أحدُكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من نفسِه»] قال عمر: والله لأنت الآن أحب إليّ [حتىٰ] من نفسي، قال: «**الآن يا عمر**» [صحيح البخاري]، أي: الآن يتحقق الإيمان.

فهذا المعنىٰ الذي هو تقديم محبة النبي عليه الصلاة والسلام علىٰ محبة النفس والوالد والولد والناس

أجمعين، وهو مُصَرَّحٌ به في السّنة كما قدَّمت، مُستفادٌ من هذه الآية ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، فإذا كان أولىٰ بكلِّ مؤمنٍ ومؤمنة من نفسه، فوجب أن تكون محبته مُقدمةً علىٰ محبة النفس.

ثم هذه المحبة التي تكونُ مقدمةً علىٰ محبة النفس ليس بمجرد الادعاء، لأنه من السهل علىٰ كل إنسان واليسيرِ علىٰ كل لسان أن يقول: إني أحبُّ الرسول عليه الصلاة والسلام محبةً مقدمة علىٰ محبتي لنفسي، كلمةٌ هينة، هينٌ قولُها، أو يسيرٌ قولُها علىٰ اللسان، فالعبرة ليست بمجرد القول أو مجرد الدعوىٰ، بل لابد أن يظهر برهانُ ذلك.

ولهذا يقول ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة، والرضىٰ والتسليم وسائر لوازم المحبة)، وشاهدُ ذلك قول الله سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران] فكانت هذه الآية محنةً وامتحانًا في هذا الباب، يُمتحنُ أو يَمتحنُ المرءُ نفسه في ضوئها، ولهذا قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: هذه الآية حاكمةٌ علىٰ كل من ادّعىٰ محبةَ النبي عليه الصلاة والسلام بأنّ دعواه كاذبة، ما لم يلزَم النهج النبوي والطريقة المحمدية طريقةَ محمد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ونَقل عن بعض أهلِ العلم أنه قال: ليس الشأن أن تُحِب، ولكن الشأنَ أن تُحَب. أي: أن يُحبك الله، والله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لن يحبك بمجرد الدعوىٰ، بل لا بد من إقامة البُرهان علىٰ صدقِ هذه المحبة، بِالاتباع والاهتداء بهدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ومنها ألا يكونَ للعبدِ حُكمٌ علىٰ نفسهِ أصلا؛ بل الحِكمُ علىٰ نفسه للرسول، يحكمُ عليها أعظم من حُكم السيد علىٰ عبده، والوالد علىٰ ولده، فليس له في نفسه تصرُّفٌ قط إلا ما تصرف فيه الرَّسول ﷺ الذي هو أولىٰ به منها.

---

نعم، هذا أيضًا من المعاني المستفادة من الآية، ألَّا يكون للعبد حكمٌ علىٰ نفسه أصلًا، وإنما الحكم للرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه أولىٰ بنفس المرء من نفسه، ولهذا أيضًا فإنّ من المعاني المستفادة من هذه الآية أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أنصحُ لِنَفسِكَ منك، وأحرصَ علىٰ نَفسِكَ منك، كما قال الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة].

فمن دلائل هذه الأولوية التي ذكر الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية: أنّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أنصحُ لنفسك منك، وأحرص علىٰ نفسك ونجاتك من حرصك علىٰ نفسك وطلبك لنجاتها، فهو أولىٰ بنفسك منك، ومن ذلكم أنه أحرص عليك منك، وأنصح لنفسك منك.

وإذا أردت شاهد ذلك فإنك تراه بيّنًا، فإنه عليه الصلاة والسلام لا يدعوك إلا إلىٰ الجنة والمنازل العالية

فيها، وانظر النفس إلىٰ أي شيء تدعو! إن لم يُجاهدها صاحبُها ويَزُمَّها بزَمام السنة وهدي النبي ﷺ، فهو أحرص علىٰ نفسِك منك، وأنصح لنفسك منك، ولهذا يتعيَّن كما ذكر ابن القيم: (ألا يكونَ للعبد حكم علىٰ نفسه أصلًا، وإنما الحكم للرسول) عليه الصلاة والسلام، وإذا جاء حُكمه عليه الصلاة والسلام لا يُلتفت إلىٰ ما تريده النفس، وما تطلبه لا يُلتفت إلىٰ هذا، وإنما الحكم له ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب].

فيا عجبًا كيف تحصل هذه الأولويةُ لعبدٍ قد عَزَلَ ما جاء به الرسول عن منصب التحكيم، ورَضِيَ بحكم غيره، واطمأنَّ إليه أعظَم من طمأنينته إلىٰ الرسول ﷺ، وزعم أنَّ الهُدىٰ لا يُتَلَقّىٰ من مشكاته، وإنما يُتلقىٰ من دلالات العقول، وأن ما جاء به لا يفيد اليقين... إلىٰ غير ذلك من الأقوال التي تتضمَّن الإعراضَ عنه وعما جاء به، والحوالةَ في العلم النافع علىٰ غيره، وذلك هو الضلال المبين.

---

يَتَعَجَّبُ - وحُقَّ لَه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ - من أُناسٍ وأقوامٍ عزلوا ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام عن منصب التَّحكيم، لم يجعلوا الحُكم لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنَّما جعلوا الحكم لأشياء أخرىٰ، وهذا يتَّضح بِتَأَمُّل المرء في الطوائف والفِرق، ما الذي جعلته حَكَمًا في عقائدها ومذاهبها؟ فإنّ المتأمل يجد أنّ الذي اتُّخِذَ حَكما في العقائدِ والمذاهب أشياء كثيرة:

منهم من جعل الحَكم العقل.

ومنهم من جعل الحكم الآراء.

ومنهم من جعل الحكم الأذواق والمواجيد ونحو ذلك.

ومنهم من جعل الحَكم القَصص وأشياء من هذا القبيل.

وهذا يظهر في طريقتهم في الاستدلال، إذا أراد الواحد أن يستدل علىٰ حكمٍ ما، لا يقول قال الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنما يستدل بالعقل المجرد، أو بالآراء المجردة، أو بالحكايات والقصص والمنامات... وأشياء من هذا القبيل، حتىٰ إنّ بعضَ هؤلاء من شِدّة تَعَصّبِه لهذه الأشياء التي جعلها هي الحكم، وهي التي يُستدلُّ بها، إذا ذُكر له الدليل من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام لم يقبله، وقدّم تلك عليه، فأين هذه الأولوية؟ أين هذه الأولوية التي دلت عليها الآية ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ عليه الصلاة والسلام ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أينها؟ إذا كان عَزَلَهُ عن أن يكون عليه الصلاة والسلام هو الحَكم؟ وهذا فيه تأكيد المعنىٰ السابق وهو قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ألا يكون للعبد حكمٌ علىٰ نفسه أصلا، الحكم للرسول) صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ولا سبيلَ إلىٰ ثبوت هذه الأولويةِ إلاّ بِعَزْلِ كل ما سواه، وتوليته في كل شيء، وعَرْضِ ما قاله كل أحد سواه علىٰ ما جاء به، فإن شهد له بالصحة قَبِلَهُ، وإن شهد له بالبطلان ردَّه، وإن لم تتبين شهادتُه له بصحةٍ ولا بطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب، وَوَقَفَه حتىٰ يتبيَّن أي الأمرين أولىٰ به. فمن سلكَ هذه الطريقةَ استقام له سفر الهجرة، واستقام له عِلمُه وعملُه، وأقبلت وجوهُ الحقِّ إليه من كل جهة.

---

من حَكَّمَ السّنة، وجعل لها الحُكم نطق بالحكمة، (وأقبلت) عليه مثل ما قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (وجوه الحق من كل جهة)، لأنّه من حكَّم من أمّر السنة علىٰ نفسه نطق بالحكمة، مثلما قال: (أقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة)، ولا يستقيم أمرُ هذه الهجرة إلا بهذا، إلا بتحكيم السنة، ولا يتحقَّق هذا المعنىٰ الذي في الآية ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ إلّا بهذا، لا يتحقق إلا بهذا، أن يكونَ الحكَم هو الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، (لا سبيل إلىٰ ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه).

انظر شاهد ذلك في الحديث العظيم، حديث العِرباض بن سارية، قال فيه عليه الصلاة والسلام: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**» أقوال وآراء ومذاهب وعقائد إلىٰ غير ذلك، سيرىٰ اختلافا كثيرا، كيف ننجو؟ ما المخرج؟ أجاب دون أن يُسأل وهذا من كمال نُصحه عليه الصلاة والسلام، قال: «**فعليكُم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين [من بعدي، تمسكوا بها و]عَضُّوا عليها بالنواجد، وإياكم ومُحدثات الأمور، فإنّ [كلَّ مُحدثة بدعة و] كلَّ بدعة ضلالة**» [صحيح الترغيب، وما بين المعقوفتين صحيح من روايات أخرىٰ].

ومِن العجبِ أن يدَّعي حصولَ هذه الأولوية والمحبة التامة مَن كان سعيه واجتهاده ونَصَبُه في الاشتغال بأقوال غيره وتقريرها، والغضب والحمية لها، والرِّضىٰ بها، والتحاكم إليها، وعرض ما قال الرسول عليها، فإن وافقها قَبِلَهُ، وإن خالفها التمس وجوه الحِيَل، وبالغ في ردِّه ليًّا وإعراضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء].

---

يعني من الناس مَن هذا شأنُهُ، كما وصف ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وإن كان يدّعي المحبة، ويدّعي هذه الأولوية للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، لكنَّ واقعه العملي علىٰ خلاف ذلك، واقعه العَمَلي علىٰ خلاف ذلك، عزل حكم الرسول عليه الصلاة السلام، وأقبل علىٰ الآراء والأقوال، معظِّمًا لها، يغضب لها، وحَمِيتُه لها، وانتصاره لها، ورِضاه بها، ثم إذا جاء حديث الرسول عليه الصلاة والسلام عَرَضَهُ علىٰ تلك الأقوال، عَكَس الأمر، جعلها هي القاضية، وجعلها هي الحاكمة، عرض عليها قول الرسول عليه الصلاة والسلام، فإن وافقها قَبِله، إذن الحديث لَمْ يُقبل عنده، ماذا!؟ ابتداءً! وإنَّما قُبل لمّا وافق الذي يعتقد، أو وافق الرأي الذي يراه، وإن لم يوافق ماذا يصنع؟ تمحَّل في ردِّه، وتكلّف في رده، مثل ما قال: (ردَّه ليًّا وإعراضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ

أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾) أي: مُطَّلِعٌ عليكم، خبير بكم وبأعمالكم وأقوالكم، وستقفون بين يديه، ويحاسبكم علىٰ ذلك، فلا نجاة إلا بإجابة الرَّسول، واتباع الرسول.

فيوم القيامة يوجَّه إلىٰ الأولين والآخرين: ماذا أجبتم المُرسلين؟ ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ [القصص]، وهذا كما مر معنا بالأمس، هذا سؤال عن الهجرة إلىٰ الرَّسول اتباعًا له، وقبله في السورة نفسها سورة القصص قال الله ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾ [القصص].

❀❀◊❀❀

وقد اشتملت هذه الآيةُ علىٰ أسرارٍ عظيمة، نحن نُنبِّه علىٰ بعضها لشدة الحاجة إليها، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء].

---

لما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مسلك أهل الضلال في التعامل مع النصوص، وهو ردُّ النصوص ليًّا وإعراضًا، واستدل بهذه الآية: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ وقفَ وقفةً عظيمةً نافعة مع هذه الآية، يذكر شيئًا من أسرارها، وينبِّه علىٰ معاني عظيمة تشتدُّ الحاجة إلىٰ بيانها، فهذه الآية ليست دليلًا ثالثا، وإنما للمناسبة لما ذكر حالَ هؤلاء وقف هذه الوقفة مع هذه الآية، يذكرُ شيئا من أسرارِها ومعانيها التي تشتد الحاجة إلىٰ بَيانها.

❀❀◊❀❀

فأَمرَ سبحانهُ بالقيامِ بالقسط، وهو العدل، وهذا أمرٌ بالقيام به في حق كل أحدٍ عَدُوًّا كان أو وَلِيًّا، وأحقُّ ما قام له العبد بالقسطِ الأقوال والآراء والمذاهب، إذ هي متعلِّقة بأمر الله وخبره، فالقيام فيها بالهوىٰ والعصبيةِ مضادٌّ لأمر الله، منافٍ لما بَعَثَ به رُسُلَه، والقيام فيها بالقِسط وظيفةُ خلفاءِ الرسول في أُمَّته، وأُمنائِه بين أتباعه، ولا يستحقُّ اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض، نصيحةً لله ولكتابه ولرسوله ولعباده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠﴾ حقًّا، لا من يجعلُ أصحابُه ونِحْلَته ومذهبه عِيارًا علىٰ الحقِّ وميزانًا له، يعادي من خالفه، ويوالي من وافقَه، لمجرَّد موافقته ومخالفته، فأين هذا من القيام بالقِسط الذي فرضَه الله علىٰ كلِّ أحد؟ وهو في هذا الباب أعظم فرضا وأكبر وجوبًا.

---

الله جل وعلا أمر عباده في هذه الآية الكريمة أن يكونوا قوّامين بالقسط، والقسط هو العدل، والله يحبُّ المقسطين، يحبُّ أهل العدل والإنصاف في الأمور كلِّها، في التعامل مع الولي ومع العدو، الله ﷻ يحب القسط، يحبُّ العدل حتىٰ لو كان من يتعامل معه عدوًّا، أو بينه وبينه شنآن وبغضاء، مثل ما قال الله ﷻ في الآية الأخرىٰ في سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا

تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٨]، فأمر ﷻ بالعدل حتىٰ لو كان بين المرء شنآن أو معاداة أو بغضاء، العدلُ به قامت السَّمٰوات والأرض، وأمر الله ﷻ به.

ثم نبَّه هنا علىٰ ما يتعلق بالسياق الذي يتحدث عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنّ (أحق ما قام له العبد بالقسط الأقوال والآراء والمذاهب)، يجب أن يكون المرء في هذه قائمًا بالقسط، قوَّامًا بالقسط، (إذ هي متعلقة بأمرِ الله وخَبرِه، فالقيامُ فيها بالهوىٰ والعصبيَّة مضاد لأمر الله)، أين العدل هنا؟ أين القِسط هنا؟ إذا كانت الحميَّة للآراء وللمذاهب والأقوال مع الصُّدود والإعراض عن هدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، أين العدل إذن؟ فهذا (مضاد لأمر الله، ومنافٍ لِما بعث به رسلَه)، والله عَزَّوَجَلَّ بعث الرسل ليطاعوا، فأين القسط إذا كان يقدّم علىٰ أقوالهم الآراء والأهواء والعقول والتخرصات والظنون!؟ الله يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:٦٤].

ثم أشاد رحمة الله عليه بأهل العلم، أهل البصيرة، أهل السنة، أهل الدراية بهدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وأنّ هؤلاء هم (خلفاء الرسول) عليه الصلاة والسلام (في أمته، وأمناؤُه بين أتباعِه، ولا يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض، نصيحةً لله ولكتابه ولرسوله)، أولئك هم الوُرَّاث حقًّا، كما في الحديث: «**وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» [صحيح الجامع]، أي: من ميراث الأنبياء.

ثم قال تعالىٰ: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ والشاهد هو المُخْبِر، فإن أخبر بحقٍّ فهو شاهدُ عدلٍ مقبول، وإن أخبر بباطل فهو شاهدُ زور، فأمر تعالىٰ أن نكون شهداء له مع القيام بالقسط، وهذا يتضمَّنُ أن تكونَ الشهادةُ بالقسطِ أيضًا، وأن تكون لله لا لغيره، وقال في الآية الأخرىٰ ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [المائدة:٨]، فتضمَّنت الآيتان.

---

نعم هنا ننتبه، يعني الشيخ الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أوَّلًا الآية التي في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ والحديث عن هذه الآية، في سورة المائدة قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ إذا جَمَعْت الآيتين والمعاني المستفادة من الآيتين تتضمن أربعة أمور، يبينها رحمةُ الله عليه.

فتضمنت الآيتان أمورًا أربعة:

أحدها: القيام بالقسط.

والثاني: أن يكون لله.

والثالث: الشهادةُ بالقسط.

والرابعُ: أن تكون لله.

---

نعم هذه أمور أربعة مستفادة من الآيتين: القيام لله، و(لله) هذه فيها الإخلاص، مثل ما نبّه، أن يكون لله، أي مخلصا، وفي الآية الأخرىٰ ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ فيه قيامٌ بالقسط، وفيه شهادة بالقسط، القيام بالقسط دلّت عليه الآية الأولىٰ آية النساء، والشهادة بالقسط دلت عليه الآية الثانية، وأن يكون ذلك كله لله ﷻ.

واختصّت آية النساء بالقيام بالقسط والشهادةِ لله، وآيةُ المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط، لسرٍّ عجيب من أسرار القرآن ليس هذا موضعَ ذكره، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥] فأمرَ سبحانه بأن يُقام بالقسط ويُشهدَ به علىٰ كل أحد، ولو كان أحبَّ الناس إلىٰ العبد، فيقوم به علىٰ نفسه، ووالديه اللّذين هما أصله، وأقربيه الذين هم أخص به وألصق من سائر الناس، فإنّ ما في العبد من محبته لنفسه ولوالديه وأقربيه يمنعه من القيام عليهم بالحق، ولا سِيَما إذا كان الحق لمن يبغضُه ويعاديه قبلهم، فإنه لا يقوم به في هذه الحال إلا من كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه من كلِّ ما سواهما.

فإنه لا يقوم به في هذه الحال إلا من كان الله ورسوله أحبّ إليه من كل ما سواهما، وهذا يمتحن به العبد إيمانه، فيعرف منزلةَ الإيمان من قلبه ومحلّه منه.

---

صدق رَحِمَهُ اللَّهُ هذا موطن امتحان، موطن امتحان عصيب جدا، يعني إذا كان في موطن شهادة، ومن يبغضه ويعاديه له الحق، وقرابته الحق ليس لهم، فيكون الإنسان في امتحان شديد لا ينجح فيه إلا إذا حقّق الإيمان، وحقق ما يقتضيه الإيمان، وإلا في هذا الموطن يسقط الإنسان أمام هذا المحك، أمام هذا المحك في الامتحان، ولهذا لمّا أمر الله ﷻ بالشهادة بالعدل حتىٰ لو كانت علىٰ الوالدين والأقربين، فكيف بالأمر إذا كانت علىٰ غيرهما؟ إذا كانت علىٰ الوالدين والأقربين مطلوبة وأن يقوم بالقسط والعدل ويشهد بالحق.

وهذا يمتحن به العبد إيمانَه، فيعرف منزلةَ الايمان من قلبه ومحلَّه منه، وعكس هذا عدل العبد في أعدائه ومن يَشْنَؤُه، فإنه لا ينبغي له أن يحمله بغضه لهم علىٰ أن يجنَف عليهم، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه علىٰ أن يترك القيام عليهم بالقسط، فلا يدخله ذلك البغض في باطل، ولا يقصُر به هذا الحب عن الحق.

---

هذه خلاصة عظيمة: (لا يُدخله ذلك البُغض في باطل)، إذا كان يُبغض عدوه لا يظلمه، لا يحمله هذا

البغض علىٰ الظلم والباطل، وإذا كان يُحب قريبَه لا يحمله هذا الحب علىٰ أن يُقَصِّر؛ بل الإنصاف مطلوب، والعدل مطلوب.

ﮁﮁ ◊ ﮀﮀ

كما قال بعض السلف: العادل هو الذي إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحق.

---

نعم، هذا هو (العادل) المنصف، (الذي إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحق)، وأيضا موضوع الغضب، كثيرا ما يحرِفُ الانسان عن العدل، ويحصل منه في غضبه من الأمور والأقوال التي ليست من العدل في شيء، ولهذا جاء في الدعاء العظيم: «**أسألكَ كلمة الحق في الغضب والرضا**» [صححه الألباني في شرح الطحاوية]، كلمة الحق في الرضا قد تكون يسيرة، لكن في الغضب! [في] الغضب عزيزة، إلا من أعانهُ الله ﷻ، فـ(العادل) حقا (هو الذي إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحق).

ﮁﮁ ◊ ﮀﮀ

فاشتملت الآيتان علىٰ هذين الحُكْمين، وهما القيام بالقسطِ والشهادة به علىٰ الأولياء والأعداء، ثم قال تعالىٰ: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء:١٣٥] أي: ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهود عليه ﴿غَنِيًّا﴾ ترجون وتأملون عود منفعة غناه عليكم فلا تقومون عليه، ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا ترجونه ولا تخافونه ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ منكم، هو ربهما ومولاهما، وهما عبداه كما أنكم عبيده، فلا تُحابوا غنيا لغناه، ولا تطمعوا في فقير لفقره، فإنّ الله أولىٰ بهما منكم.

---

هذا معنىٰ ذكره ﷲ تعالىٰ لقوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾، ﴿إِن يَكُنْ﴾ أي: (المشهود عليه)، ﴿غَنِيًّا﴾ فترجونه، (وتُؤمِّلون عود منفعة غناه عليكم، ﴿أَوْ﴾) كان (﴿فَقِيرًا﴾ فلا ترجونه ولا تخافونه) ولا تُؤمِّلون شيئا، ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي منكم، هذا معنىٰ، وثمة معنىٰ آخر قاله ﷲ.

ﮁﮁ ◊ ﮀﮀ

وقد يقال فيه معنىٰ آخر أحسنُ من هذا، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة علىٰ الغني والفقير، أما الغني فخوفًا علىٰ ماله، وأما الفقير فلإعدامه، وأنه لا شيء له، فتتساهل النفوس في القيام عليه بالحق، فقيل لهم: الله أولىٰ بالغني والفقير منكم، أعلم بهذا وأرحم بهذا، فلا تتركوا أداء الحق والشهادة علىٰ غني ولا فقير.

---

يعني قد تُترك الشهادة علىٰ (الغني خوفا علىٰ ماله)، أن يضيع مثلا بهذه الشهادة، أو يذهب عنه بهذه

الشهادة، وقد تُترك الشهادة خوفًا على (الفقير لإعدامه) وفقره، فالله ﷻ قال: لا تتركوا أداء الحقِّ والشهادة على الغني والفقير ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ لا يجعلكم حرصكم عليهم تحيفون في الشهادة ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾ [النساء:١٣٥] نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل، وقوله: ﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾ منصوبُ الموضع على أنه مفعول لأجله، وتقديره عند البصريين: كراهية أن تعدلوا، أو حِذار أن تعدلوا، فيكون اتِّباعكم الهوى كراهية العدل وفرارا منه، وعلى قول الكوفيين: التقدير ألا تعدلوا، وقول البصريين أحسن وأظهر.

---

وهذا معنى قوله في هذا السياق (﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْ﴾ نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل)، ومعنى قوله: ﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾ أي: كراهية أن تعدلوا، واتباع الهوى يفضي إلى هذا، فنهاهم الله ﷻ عن اتباع الهوى، لأنّ اتباع الهوى يحمل صاحبه على ترك العدل.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء].

---

هذا الموضع الذي لأجله ساق الآية بتمامها، وأخذ يذكر المعاني واللطائف حولها، فقوله: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾ فما اللّي؟ وما الإعراض؟

ذكر سبحانه السببين الموجِبين لكتمان الحق محذرا منهما، متوعدا عليهما، أحدهُما: اللّي، والآخر: الإعراض. فإنّ الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يرومُ دفعَها طريقًا إلى دفعها، أعرض عنها وأمسك عن ذكرها، فكان شيطانا أخرس، وتارة يلويها أو يحرفها.

---

يعني هاتان طريقتان لمتبع الهوى إذا جاء الحق مخالفا لما هو عليه، كيف يتعامل مع الحق؟ إما أن يُعرض عن الحق، أو يلوي الحق على غير معناه، فيحرفه، يلويه ويَحْرِفه على غير معناه، فيحمله على غير معناه، وعلى غير محمله، فإما أن يقابله بالإعراض أو يقابله باللّيْ، ليَّه أي حرفه عن مدلوله، وعن مقصوده، وكلٌّ من الأمرين موجود عند أرباب الباطل وأصحاب الأهواء.

واللّيُّ مثل الفَتْل، وهو التَّحريف، وهو نوعان: لَيٌّ في اللفظ، ولَيٌّ في المعنى. فاللّيُّ في اللّفظ: أن يلفظ بها على وجهٍ لا يستلزم الحقّ، إما بزيادة لفظةٍ، أو نقصانها، أو إبدالها بغيرها، أو لَيًّا في كيفية أدائها، وإيهام السامع لفظًا ومراده غيره، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسَّلام على رسول الله ﷺ، فهذا أحد نوعي اللّيْ.

---

يعني اللّيّ هو التحريف، وحملَ الكلام على غير محمله، وهذا من طرائق أهل الباطل، وهو متلقى من

اليهود ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦]، هو مُتلقّىٰ عنهم، وهي طريقتُهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**لتتبِعُن سَنَنَ من كان قبلَكم شبرا شبرا، وذراعا بذراع، حتىٰ لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ [تبعتموهم]**» قيل: اليهود والنصارىٰ؟ قال: «**فمن؟**» [صحيح البخاري ومسلم].

فاللّيّ للنّص هو تحريفُه وحمله علىٰ غير معناه، والتَّحريف مثل ما ذكر ابن القيم: لفظي ومعنوي، وتجدون في هذا بحثًا موسعًا لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتابه «الصواعق»، في مختصره «مختصر الصواعق»، تكلم وذكر أمثلة توضح التحريف بأنواعه: اللفظي بنوعيه، والمعنوي بنوعيه، وذكر الأمثلة علىٰ ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والنوع الثاني منه: لَيُّ المعنىٰ، وهو تحريفه وتأويل اللفظ علىٰ خلاف مراد المتكلم به، وتَحْمالُه ما لم يُرِده.

(تحماله) أي: يُحمّله، يُحمّل النص (ما لم يرده)، هذا التحريف أو الليّ المعنوي، أو التحريف المعنوي: تأويل اللَّفظ علىٰ خلاف مراد المتكلم، التحريف المعنوي: أن يُعطَىٰ اللفظ معنىٰ لفظٍ آخر، التحريف اللفظي: أن يغير في اللفظ، بزيادة حرفٍ أو كلمة، أو بحركةٍ إعرابية أو غير إعرابية، هذا كله بينه ابن القيم في الكتاب الذي أشرت إليه، والتحريف المعنوي: أن يُعطي اللفظ معنىٰ لفظٍ آخر، فيُخرِج اللفظ عن دلالته أصالةً بإعطائه معنىٰ لفظ آخر، وهذه طريقة أهل البدع، إذا جيء لهم بنص مثبت لحق هم لا يثبتونه، يَحمِل النص علىٰ معنىٰ آخر، يقول: المراد بهذه الآية أو بهذا الحديث كيت وكيت، يُعطيه معنىٰ آخر بعيد ليس مرادا، هذا هو اللّيّ، وهو التحريف.

والنوع الثاني منه: ليُّ المعنىٰ وهو تحريفه وتأويل اللفظ علىٰ خلاف مراد المتكلم به، وتَحْمالُه ما لم يرده، أو يسقط منه بعض ما أراد به، ونحو هذا من ليّ المعاني، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٣٥﴾ [النساء].

ولمّا كان الشاهد مُطالَبًا بأداء الشهادة علىٰ وجهها، فلا يكتمها ولا يغيرها، كان الإعراض نظير الكتمان، واللّيّ نظير تغييرها وتبديلها، فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم.

والمقصود أن الواجب الذي لا يتمُّ الإيمان؛ بل لا يحصُلُ مسمَّىٰ الإيمان إلا به: مقابلةُ النصوص بالتلقِّي والقبول، والإظهار لها، ودعوة الخلق إليها، لا تُقابل بالإعراض تارة، وباللَّيّ أخرىٰ.

يعني خلاصة الكلام: (أنّ الواجب الذي لا يتم الإيمان، بل لا يحصل مسمىٰ الإيمان إلا به: مقابلة النصوص بالتلقي والقَبول)، مثلما قال الإمام الزُّهري محمد بن شهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، قال: من الله الرسالة، وعلىٰ الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. هذا واجبنا، واجبنا أمة النبي عليه الصلاة والسلام أن نسلِّم، وأن نُذعن،

وأن ننقاد لما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه، هذا هو الواجب.

والإظهار لها ودعوة الخلق إليها، لا أن تُقابل بالإعراض تارة، وباللّيّ أخرىٰ، فهذا المسلك ليس مسلك من حقّق صِدق المحبة والإيمان بأولوية النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، التي دل عليها قول الله سبحانه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ دليلا آخر علىٰ مقصود هذا الفصل، وهو الدليل الثالث قول الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ [الأحزاب:٣٦] وعرفنا طريقته، يذكر الدليل ثم يعلق عليه بما يفتح الله عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

نسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم بأسمائه الحُسنىٰ وصفاته العُليا أن ينفعَنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا عِلمًا وتوفيقا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، اللّٰهُمَّ اغفر لنا ولوالدينا ووالديهم وذرياتهم وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، اللّٰهُمَّ أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللّٰهُمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا، سبحانك اللّٰهُمَّ وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللّٰهُمَّ صل وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.